

أسس ومناهج بلوغ الحقائق التاريخية عند البيروني

Methods for achieving historical facts according to Al-Biruni

	د. فريدة أولمو *
	قسم الفلسفة، جامعة الجزائر2، بوزريعة (الجزائر)
	Farida.oulmou@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2024/02/04... تاريخ القبول: 2025/11/09

الملخص: أثارت الحقيقة التاريخية جدلا واسعا بين الفلسفة والعلم والأنثروبولوجيا لما تتسم به من غموض في مناهجها ونسبية النتائج المتوصل إليها في حالات عدة من الحوادث التاريخية في شتى مجالات الفكر والمعرفة. ونسعى في مداخلتنا هذه الوقوف على أسس ومناهج بلوغ الحقيقة التاريخية عند البيروني معتمدين في دراستنا على كتابه "الآثار الباقية من القرون الخالية". وعلى مستويات تناقل المعرفة التاريخية لديه مع اختلاف الرواية الشفوية والرواية المكتوبة إضافة إلى المشاهدة بالعيان والمشاركة. ونستدل من جهة أخرى بحججه وبراهينه في جوهريته "ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة". كما نسعى إلى تبيان منهج البيروني وأسبقيته وخصوصيته وأهميته في الفكر الإسلامي والعالمي ككل. معتمدين على المنهج التحليلي النقدي في دراستنا المتواضعة هذه.

الكلمات المفتاحية: البيروني؛ الموضوعية؛ الصدق؛ الحياد؛ الحقيقة التاريخية.

Abstract : Historical truth has sparked widespread controversy among philosophy, science, and anthropology due to its ambiguity in its methods and the relativity of the results reached in several cases of historical events in various fields of thought and knowledge

In our intervention, we seek to establish the foundations and methods for achieving historical truth according to Al-Biruni, relying in our study on his book "The Remaining Antiquities of Past Centuries" - and on the levels of transmission of his historical knowledge, with differences in oral and written narrations, in addition to visual observation and participation. On the other hand, we cite his arguments and proofs in his famous book: India has no saying that is acceptable to reason or rejected

Keywords : Objectivity; Al-Biruni; objectivity; Honesty; Historical truth)

مقدمة:

تنوعت وتعددت مناهج بلوغ الحقائق التاريخية واختلفت باختلاف مفهوم الحقيقة في حد ذاتها وإشكالية مفهومها و نسبيتها أو مطلقتها. كما تضاربت الآراء واتسعت المعارف والايديولوجيات في ضبط معنى التاريخ بين العلمية والذاتية، وبين التاريخ (بزمكانيته) والتاريخ بمناهجه وأصوله؛

وبين هذا وذاك أصبحت الحقائق التاريخية أكثر جدلا من حيث المعنى والمنهج والغايات أيضا، ومحاوله منا لإثراء النقاش والبحث في أصول ومناهج الحقيقة التاريخية في الحضارة الإسلامية ارتأينا اتخاذ منهج البيروني (973م/1840م) الذي تأسس وفق منهج عيان يحتكم إلى العقل والنقد البناء وذلك وفق معاشية ميدانية لشعوب الهند ومعرفة أحوالهم وطبائعهم وتعلم لغتهم ولهجاتها والاطلاع على كتبهم وتراثهم الديني والسياسي والاجتماعي اطلاعا دقيقا وافيا مما جعله يستخدم قلمه بل ويسخره لتدوين آثار الأمم الباقية من القرون الحالية وهنا تساءلنا :

لماذا أصر البيروني على استنطاق خوالد آثار القلم للإتيان بأخبار الأمم؟

فما المقصود عنده "العلم بأخبار الأمم"؟، وكيف استخدم البيروني القلم لتدوين الحقائق التاريخية؟

وماهي المناهج المتعددة التي اعتمدها لتدوين تواريخ الأمم الباقية على حد تعبيره؟

للإجابة على هذا الطرح علينا بداية البحث في:

1. في مفهوم التاريخ وماهيته:

يعرف التاريخ بشكل عام على أنه جملة الأحوال والأحداث والوقائع التي يمر بها كائن ما وتصدق على الفرد، والمجتمع كما تصدق على الظواهر الطبيعية والإنسانية، أما من حيث الاشتقاق فإن كلمة "تاريخ **Histoire**" كلمة يونانية الأصل، دلت عند "هيروودوت" في القرن الخامس قبل الميلاد، على استقصاء الإنسان لواقعة إنسانية منقضية من أجل التعرف على أسبابها ووقائعها وآثارها. أي الوقوف على معرفة حقبة زمنية انقضت وانتهت لأحداث إنسانية ما .

و لقد أخذ "هيروودوت" بمبدأ العلة و المعلول من خلال البحث عن العلة و أسبابها، في محاولة منه للتفريق بين ما هو تاريخي من خلال استقصاء¹ أخبار البشر و وقائعهم التي وقعت بالفعل، و بين ما هو أسطوري متعلق بالآلهة، و الذي يتطلب المساءلة و البرهان، لأن التاريخ الذي كتبه المؤرخون قديما عن الأبطال و شجاعتهم، و عن الآلهة و أخبارها، كان تاريخا تمتزج فيه الحقيقة بالخيال، و كان أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة، لذلك وجب التمييز بين ما هو حقيقي و ما هو خيالي، أو أسطوري لكن نسبة الخيال تضاعلت شيئا فشيئا في كتابة التاريخ بعدما طبعت عليه السمات العلمية مع بداية العصر الحديث وبدأ الجانب الأسطوري والخيالي يتلاشى تدريجيا

وهناك من يعتقد أن لفظة تاريخ هي لفظة عربية تدل على العهد أو الحساب أو التوقيت أي تحديد الوقت وتحديد الشهر، ثم اتسع نطاق هذه اللفظة فشمل من جهة معنى تحديد عهد حدث ما، وقد استند التيار المعرف للفعل التاريخي بهذا الشكل إلى بعض القواميس العربية

¹ - فيصل دراج: الرواية وتأويل التاريخ، (نظرية الرواية والرواية العربية)، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب، بيروت، لبنان، 2004، ص81 .

كلسان العرب والقاموس المحيط وغيرهما إذ جاء في لسان العرب أن: "التاريخ: تعريف الوقت، والتواريخ مثله. أرخ الكتاب ليوم كذا: وقته، والواو فيه لغة، وزعم يعقوب أن الواو بدل من الهمزة.

ووصفه الصيدائوي مما اشتق من ابن منظور في لسان العرب أن الإرخ ولد البقرة الوحشية إذا كان أنثى. وأكد مصعب بن عبد الله الزبيري: الأرخ ولد الصغير، وقيل: إن التأريخ مأخوذ منه لأنه حديث، وقالوا من الأرخ ولد البقرة: أرخت أرخا. و أرخ إلى مكانه يأرخ أروخا: حن إليه؛ وقد قيل: إن الارخ من البقر مشتق من ذلك لحنينه إلى مكانه و مأواه. و هو ما يحيل إلى معنى الذاكرة التي تسترجع الماضي فيكون في ذلك مبعثا على الحنين إلى أيام خلت و هناك من ينظر إلى الفعل التاريخي من زاوية أخرى بل من منظور آخر فهو غير عربي محض ولا ينتمي إلى حضارة المسلمين بشكل خاص وقد قيل: إن التأريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربي محض، و تاريخ المسلمين أرخ من زمن هجرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كتب في خلافة عمر رضي الله عنه، فصار تاريخا إلى اليوم. وعلى ذكر الحقيقة التاريخية، بعض مصادر الخبر أوردت أنه ليس بعربي و يقصد به مصدر الخبر وهو اسم معرب لا غير، وهو معرب فهو تعيين يوم ظهر فيه أمر شائع (غريب الحدث) من دولة أو جماعة أو شعب أو حتى شخص.

أما التاريخ الذي أصبح اليوم علما فتمتد جذوره إلى مراحل التدوين الأولى التي عرف بها الإنسان وتواصل بها مع الآخرين رمزاً كان، أو صورة، أو رسماً، وما إلى ذلك.

وقد يعرف التاريخ بالوقت فليل هو قلب التأخير، وقيل هو معنى الغاية، فلان تاريخ قومه أي ينتمي إلى شرفهم، فمعنى قولهم فعلت في التاريخ كذا فعلت في وقت الشيء الذي ينتمي إليه، ولا يخلو معنى التاريخ اصطلاحاً من كونه ذلك العلم الذي يتضمن ذكر الأحداث وأوقاتها، وأسبابها ونتائجها كذلك معرفة النواحي الحضارية المختلفة من حيث نشأتها وتطورها وعوامل ازدهارها واضمحلالها. ف " الإنسان من بين الكائنات الحية جميعا الذي يصنع تاريخه، وهو الكائن الوحيد الذي لديه الوعي بالزمان. وإذا كان من الصحيح أن الكائنات الأخرى لها تاريخ، فانه من الصحيح أيضا أنها لا تعي زمانها ولا تاريخها الطبيعي، والإنسان وحده هو صاحب التاريخ البشري وصانعه عن جدارة²."

ويمكننا تحديد معالم التاريخ الإنساني وفقا لهذه المقولة: من جانبين اثنين:

● الحدث الذي يقوم به الانسان والذي وصفه ابن خلدون: " هو في ظاهره لا يزيد عن أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى، تنمو فيه الأقوال وتضرب فيها الأمثال.... وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق..³."

فالحدث هو ذلك التفاعل الداخلي للمجتمع في الغالب والذي لن يكشف إلا من خلال منظومة ثقافية متكاملة تفرز آثارها وتبرز من خلال الفنون والقيم والعادات والطقوس الدينية والمعتقدات التي هي صناعة للأحداث المختلفة فلا حدث بلا إنسان، ولا إنسان بلا

² - عطيات أبو السعود الوحي التاريخي بين الماضي والمستقبل، عالم الفكر، العدد 4، المجلد 29، أبريل-يونيو 2001م، ص 86.

³ - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج 1، موقف للنشر. 1991م، ص 71.

حدث و بلا تاريخ . فحقائق التاريخ إجمالاً تشتق من الشواهد الإنسانية؛ وعليه فكل ما هو تاريخي يكون قد حدث بالفعل في الماضي، وإذن فهو معقول لأنه حدث كما تفسره بعض الدراسات⁴.

• **والزمن الذي يجري فيه الحدث** " ويعتبر الزمن اسم لقليل الوقت وكثيره وجمعه أزمان و أزمنة " (و هو المدة القابلة للقسم و الذي يدل على بداية أو نهاية ما للزمن الذي وقعت فيه الحادثة ويرتبط الزمن التاريخي في الغالب بالماضي على الأكثر وهو يدل في العادة على استعادة أحداث جرت في زمن انقضى يبحث فيه عن وقائع وحيثيات قصد التوثيق والأرشفة.

يعتبر المسعودي أول من درس التاريخ دراسة علمية موضوعية في الحضارة الإسلامية مستبدلاً نظام الحوليات الذي كان سائداً من قبل والمعروف بصفة خاصة عند الطبري، فبدلاً من ترتيب الحوادث التاريخية على حسب السنوات استبدلها المسعودي في كتابه "مروج الذهب"، وفقاً للدول والملوك والشعوب. وهو منهج كان له أثره في كثير من المؤرخين من بعده وخصوصاً ابن خلدون لاسيما فيما تعلق بالإسناد الذي خص المسعودي فيه التركيز على الإسناد وامتّن الخبر مما جعل النقاد يجمعون على دقة المسعودي في التحري و إعمال ميزان النقد، بل أكثر من هذا فهو البيروني وابن خلدون "يمثلون كلهم تياراً تنظيراً وتنظيماً في فلسفة التاريخ"، بما أنهم اعتبروا التاريخ مخبراً بحثياً يتم فيه التحقق من صحة الأحداث والوقائع. فما الذي يميز البيروني عنهما؟

حتى وإن تم الاتفاق على مفهوم التاريخ وفقاً للحدث والزمن الواقع فيه وعلى ضرورة الإمام بالأحداث والوقائع في فترة زمنية ما، إلا أن عبد الله العروي في فكرنا العربي المعاصر يشير إلى وجود إشكالية كبرى بين الحقيقة التاريخية والرواية التاريخية يقول في هذا: "نعتقد تلقائياً أنه لا فرق بين تاريخ الوقائع وتاريخ الأخبار، هذا يعني أن التاريخ لا ينفصل عن الإنسان وبخاصة الإنسان المتخصص الذي نسميه بالمؤرخ، في هذا السياق لا يمكن تقديم التاريخ على المؤرخ فهما متلازمان .

فهل هناك فرق بينهما؟ وما قوام الحقيقة التاريخية عند البيروني؟

2. البيروني وإسهاماته العلمية في بلوغ الحقيقة التاريخية:

اهتم البيروني بعلم التاريخ الذي يعد من أهم العلوم الإنسانية وبالكتابة التاريخية وبعلم مقارنة الأديان والأنثروبولوجيا الاجتماعية وما إلى ذلك . ويظهر ذلك في نمط الكتابة التاريخية الذي أسس له وأصل سبله في الحضارة الإسلامية قبل ظهور مفهوم العلوم الإنسانية كما يصطلح عليها اليوم وقبل ظهور المناهج الغربية التي يدعي الغرب أنها من مفرزات الحداثة والعقل الغربي المفكر تجاهلاً لكل تناقض إبستمولوجي بين الحضارات .

⁴ محمد وقيدي، العلوم الإنسانية والإيديولوجية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 1983، ص 27.

كان البيروني متفردا في مادته ومصادره وأسلوبه وقد بدا ذلك واضحا في كتابه: "الآثار الباقية عن القرون الخالية" و"تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة". والدليل على ذلك الصدى العالمي لهاته الجواهر وعدد ترجماتها إلى اللغات العالمية منذ تداولتها أيادي الباحثين والنقاد إلى يومنا هذا.

لقد أحدث البيروني ثورة منهجية في الكتابة التاريخية، مثلت قفزة نوعية من حيث الموضوع والمنهج في زمنه حيث تجاوز مسالك سابقيه ومعاصريه ممن حاولوا الوقوف على بعض الحقائق التاريخية فوقعوا في مطبات الذوات والأحكام المسبقة والأيديولوجيات الدينية والسياسية، إدراكاً منه بأنهم سلكوا مسلكاً لا يرق إلى مستوى المنهج العلمي، ولذلك كان على وعي تام بالعوائق المختلفة التي تقف في سبيل الكشف عن الحقيقة التاريخية، منها مثلاً ما يتعلق بالذات الباحثة، ومنها ما يرتبط بالموضوع المدروس لغرابته أو صعوبته أو حساسيته.

اعتبر البيروني التاريخ مدة معلومة تعد من لدن أول سنة ماضية كان فيها مبعث نبي بآيات وبرهان أو قيام ملك مسلط عظيم الشأن أو هلاك أمة بطوفان عام... أو انتقال دولة أو تبدل ملة أو حادثة عظيمة من الآيات السماوية والعلامات المشهورة التي لا تحدث إلا في دهور متطاولة وأزمنة متراخية تعرف بها الأوقات المحددة فلا غنى عنها في جميع الأحوال الدنيوية والدينية.

فمن هو البيروني؟؟؟

و ما هو السبيل الذي اتبعه البيروني في تقصي الحقائق التاريخية؟

2-1 سيرة البيروني العلمية:

يعتبر محمد بن أحمد أبو ريجان البيروني الخوارزمي (من العلماء الذين قدموا اسهامات جليله في مختلف علوم عصره بعيدا عن الأيديولوجيا والسياسة والدين رغم ما عرف من خلافات سياسية وطائفية في عصره فهو كما اعتبره الأستاذ التونسي فتحي التريكي مؤسس فكر تاريخي عربي إسلامي مستقل عن الدوافع الدينية والنوازع السياسية بامتياز.

عاش البيروني في العصر الذي اعقب فيه القرن التاسع الميلادي والذي عرف بالثقاف والتواصل والتكامل الثقافي والعلمي من حيث تمازج الثقافات اليونانية والهندية والإيرانية، وتمت فيه توسعة علم الرياضيات وأدركت تماما أهمية ومكانة الجبر والحساب ودقة الهندسة وفائدة الكيمياء في حياة البشر وآثارها على الطب والتداوي والصيدلة، والفيزياء ومجالاتها، وعلم الفلك ومدى أهميته وتنبها العلماء إلى مناهج البحث وضرورتها في مختلف العلوم .

عرف البيروني بحبه للتجوال في عمق المجتمعات والعادات وحبه لتعلم اللغات المختلفة التي سرعان ما كان يتقنها نطقا وفهما ، وخير دليل على ذلك ما نقله لنا من أخبار الهند معاينة ومشاهدة بلغتهم ولهجاتهم التي سرعان ما تعلمها بدخوله الهند والإقامة فيها.

كان البيروني كثير القراءة والبحث، كثير الأسفار العلمية و الترحال، مما جعل منه مفكرا موسوعيا وفلكيا ومؤرخا ورياضيا وغيرها من علوم عصره التي ذاع صيته فيها ، كان صديقا لابن سينا الطبيب وكان يتبادلان الرسائل العلمية الاستفسارية ويتشاوران في أكثر القضايا صعوبة

وغموضاً. يصف البيروني أبحاثه ودراساته المعمقة والبسيطة يقول: "ويجب عليك أن تعلم فيما عدته من كتب مما عملته في حوادثي وازدادت المعرفة بفنه بعد ذلك فلم أطرحه أو أستزله فإنها جميعاً أبنائي والأكثر بابنه وبشعره مفتون، وما عمله غيري باسمي فهو بمنزلة الربائب في الحبور والقلائد على النحور لا أميز بينها وبين الأنهار⁵ ."

ويروى أنه تتلمذ بشكل خاص على يد أبو سهل عيسى بن يحيى المسيحي (ت383هـ): "عالم الطب وعلوم المنطق، والذي كان له كناش عرف باسم المائة مقالة . "التقى به البيروني في بلاط الأمير قابوس و تتلمذ عليه وشاركه في أبحاثه.

لم يكن البيروني ساعياً للشهرة ولا محباً للمناصب والأموال الطائلة وقد ذكرت في هذا الشأن روايات كثيرة من النقاد العرب والمستشرقين⁶. اعتبر البيروني من الذين "شغلوا مكانة خاصة في التأليف العلمي في القرون الوسطى، فعلى الرغم من تقادم الزمن فانه يبدو في أيامنا هذه وجهاً فتياً في مضمار العلم"

آمن البيروني باتساع مفهوم التاريخ نتيجة العلوم المختلفة التي تضلع فيها بفضل انفتاحه على الأمم الأخرى وتمكنه من فهم علومها وتأسيس أفكاره العلمية الدقيقة في الطب والصيدلة والجغرافيا والفلك و بفضل اتقان اللغات و التعمق في أنثروبولوجيا الأمم فعلى رأي البيروني لا بد من تأمل التاريخ لمعرفة الأمثلة على هذا مما يقع في كل آونة وفي كل دولة ،فالكتابة التاريخية هي حفظ للحقائق وللاثار وللمعارف الأمم وحسب البيروني شرف الكتابة والتدوين يفوق شرف كل علم بل إن الكتابة نوع من أنواع العلم يكاد يكون أشرف من غيره كما جاء في مقدمة كتابه في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة.

ويصف البيروني تجربته عن الهند معبراً أن ما قصصه عن الهند كان كفاية لمن أراد مداخلة الهند فخاطبهم في المطالب بحقيقة ما لهم عليه. وأن زبدة ما روى لم تكن إلا عن حق، واسترشاد الوقوف على الباطل لتتقيه.

ويضيف شرحاً ووصفاً دقيقاً عن الثقافة الهندية وتاريخ شعوبها في ترجمته لكتاب بانتجالي في الخالص من الارتباك:الذي خص له جزءاً يسيراً من مقدمة كتابه تحقيق ما للهند قائلًا: "وكننت نقلت إلى العربي كتابين أحدهما في المبادئ وصفة الموجودات، واسمه "سانك" والآخر في تخليص النفس من رباط البدن ويعرف "بياتنجل" وفيهما أكثر الأصول التي عليها مدار اعتقادهم دون فروع شرائعهم(أي الهند)، و أرجو أن هذا ينوب عنهما وعن غيرهما في التقرير ويؤدي إلى الإحاطة بالمطلوب بمشيئة الله".

وفي "علم التاريخ" أوفى تقديم أسس المنهج العلمي للحقيقة التاريخية يثني جميع النقاد والباحثين على أن كتاب " الآثار الباقية من القرون الخالية" هو إحدى الجواهر الفكرية المصنفة عالمياً إلى جانب القانون في الطب لابن سينا ، وثاني كتبه والأكثر شهرة في مقارنة الأديان وتفسير الحقائق التاريخية فيه تفسيراً علمياً موضوعياً هو كتاب " تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"، وكلمة تحقيق وإن

⁵ - زهير الكتي، محمد بن أحمد البيروني، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 1992م، ص25.

⁶ - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج، 5 تحقيق أحمد فريد الرفاعي، مطبعة المأمون القاهرة، ص2332.

دلت على شيء فإنما دلت على الموضوعية والحياد والروح العلمية المحضة. وصف البيروني في هذا الكتاب الهند وأسسها العقائدية والعلمية ومعالها الجغرافية ومبادئها الفلسفية التي بنيت عليها كمنبع السنن والنواميس والرسل ونسخ الشرائع وغيرها⁷.

كتب البيروني "تاريخ الهند"، و"تاريخ الأمم الشرقية" وهذا بعد تعلم اللغة السنسكريتية والتعرف على الهند من خلال لغتها وثقافتها وأحوال عبادها ومعرفة دياناتها وطقوسها و معاشة و معاينة أحوالها تفصيلا وإجمالاً.

قدم البيروني في هذين الكتابين منهجا أصيلاً وعميقاً في البحث العلمي الموضوعي مما جعل النقاد يجمعون على أنه أفضل رسالة رمزية لبلوغ اليقين العلمي والموضوعية في بحوث المسلمين قدم فيه صورة للتاريخ البشري والحضارة الإنسانية معتمداً آلية منهجية ترصد النتائج المهمة والأرقام العميقة التي وجهت التاريخ الإنساني كله رغم كل المغالطات التي أراد بعض المستشرقين نشرها إلا أن صدق البيروني وجدته وموسوعيته ودقته و موضوعيته كانت نمطاً متفرداً صفت له كل التيارات رغم اختلافها وإيديولوجياتها واعترفت بقيمته العلمية في البحث ، فتوابعه في التاريخ من خير المراجع لاستطلاع أخبار الشعوب الشرقية وحوادثها وأساليب معيشتها لما اتسمت به من روح علمية أصيلة و موضوعية وحياد لم تشهده الدراسات التاريخية من قبل .

فقد أصر البيروني في مسلكه العلمي على ضرورة إبعاد عقولنا عن جميع العوامل المؤدية إلى الزلل والمغالط بالابتعاد عن الأهواء والاقتراب من منطق العقل السليم والنقد العملي القائم على البرهنة والحجة والدليل وربما هذا أيضاً ما أراد من كتابه الضخم الذي لا يقل شهرة عن سابقه؛ وهو كتاب "القانون المسعودي".

2.2- المناهج العلمية في تبيان الحقائق التاريخية عند البيروني:

وقد كان البيروني غزير الإنتاج، وظل يؤلف طوال نصف قرن، وكان التاريخ أول كتبه من حيث التأليف في كتاب "الآثار الباقية عن القرون الخالية". وقد اعتمد البيروني في منهجه التاريخي على الاحتكام للعقل بعد الاستقصاء والاستيعاب والتحليل والنقد فقد قال فيه علي الشابي التونسي: "أنه يبحث التاريخ والمجتمع بطريقة رياضية بحثة لا تقبل الرفض أو التعديل إلا بقدر ما تسمح به الحقائق وقد وفق البيروني في ذلك معرفته الشاملة ويقظته العقلية وحسه النقدي في معالجة كثير من قضايا التاريخ بفضل أسبقية المنهج العلمي على الرواية التاريخية، فإن كان المنهج هو المسلك أو السبيل الذي يتخذه الباحث مساراً له للكشف عن حقائق الأشياء وكنهها بدون زلل أو غلط فقد استخدم البيروني عبارة "طريق" دلالة على المنهج أو المسلك يصف ذلك " لا يليق بطريقتنا التي سلكنها أن نضيف الشك إلى اليقين والمجهول إلى المعلوم".

3. أدوات معاينة التاريخ عند البيروني :

⁷ - الفندي محمد جمال، أعلام العرب البيروني، دار الكتاب العربي، مصر، د.ط، 1968، ص43.

لقد اعتمد "البيروني" في معانيته للتاريخ وفي كتاباته التاريخية على أدوات علمية متعددة في تعامله مع التاريخ وهي: العقل والمشاهدة والتجربة إضافة إلى استخدامه منهج المقارنة في دراسة التاريخ..

يقال أن أهم ما تميز به "البيروني" في نقده وتعامله مع الخبر كان العقل.. ولم يسبق العقل وروح النقد والتريث في النظر للأمر؛ لأنه المعيار الذي اعتمده البيروني في قبول بعض الأخبار أو رفضها، وذلك في حالة غياب مصدر موثوق يؤكدتها أو ينفيها.

يرى "البيروني" أنه لا يمكن أن تكون الأخبار بمنأى عن حكم العقل وأكد كذلك على أهمية أن تعرض الأخبار على محك العقل فما يقبله يقبل وما يرفضه يرفض والدليل على ذلك مورد في كتاباته من مفردات مثل: "ممکن"، "جائز"، "واجب"، "ممتنع"، وأشار أيضا البيروني إلى "الخبر عن الشيء الممكن الوجود"،⁸ هذه المفردات يبقى من خلالها الموقف من الخبر بين الرفض و القبول و هذا الموقف يشير على حضور العقل في التعامل مع هذه الأخبار والروايات.

• الروح النقدية:

لقد أدرك البيروني من خلال اطلاعه على علوم السلف أنهم يصيبون في بعض الأحيان ويخطئون في البعض الآخر لذلك حذر البيروني من عدم الوقوع في أخطائهم وذلك من خلال الشك المنهجي والنقد والتمحيص لتلك العلوم وإخضاعها للاختبار خاصة تلك التي لها علاقة بمجال الطب والكيمياء أو غيرها من المخترعات العلمية، فروح النقد معناها "أن يأخذ العالم على عاتقه أن يفحص ويدقق ويتحرى، دون تدخل من أهوائه وأن يعي في ذهنه كل خطوة يخطوها. ويتطلب ذلك طاقة أخلاقية كبيرة، وقدرة على كبح أهواء الذات".⁹

وقد اتصف البيروني بالروح النقدية في كل كتاباته، فنجدته ينقد جهلاء عصره والمتحاملين على أهل العلم والمشتغلين بالمعرفة بقوله: "إذا نظرت إلى أهل زماننا وقد شكلوا في أقطاره بشكل الجهل، وتباهوا به وعادوا ذوي الفضل، وأوقعوا بمن اتسم بالعلم، وساموه أنواع الظلم والضميم".¹⁰

ولقد كان "البيروني" منصفاً في نقده بحيث أنه لا ينقد من أجل النقد فقط ما لم يكن مقتنعا أنه اكتشف خلل ما في الموضوع كما كان لا ينقد دون أن تكون له دراية شاملة عن الموضوع فمثلاً نجده عندما كان يجهل طريقة الصين والهند والترك في كبس ستنهم الشمسية يعتذر حتى يحيط علماً ويتثبت في ذلك و يقول: "أعرضنا عن ذكرها إلى وقت يتفق لنا الإحاطة فيه، إذ لا يليق بطريقتنا التي سلكنها أن نضيف الشك إلى اليقين والجهول إلى المعلوم" وقد تبين نقده البناء في تعامله مع أفكار جالينوس الذي رفض علمه مرة وأنصفه مرات عدة في مواطن الحق.

• النزاهة :

⁸ - البيروني أبي الريحان، القانون المسعودي، الجزء الأول، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن الهند صحح عن النسخة القديمة، ط1 1954، ص 127.

⁹ - بركات محمد مراد، البيروني فيلسوفاً، الصادر لخدمات الطباعة سيسكو، ط1، 1988م، ص96.

¹⁰ - أبو الريحان البيروني، تحديد آيات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن، تحقيق د. ب. بولجكوف. مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ط1، 1962 م، ص22.

ذكرنا سالفاً ما يدل على النزاهة عند البيروني الذي لم يسع لشهرة أو مال وإن كانت النزاهة ركناً أساسياً من أركان الموضوعية فقد كشف عنها البيروني وتحلى بها أيضاً إذ نجده يبدأ في مقدمة كتابه "في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة يؤكد أنما صدق قول القائل ليس الخبر كالعيان. وتقتضي أيضاً نزاهة الباحث عند البيروني أن يكون في عمله العلمي ساعياً إلى الحقيقة وحدها دون التفكير في الفوائد حيث نرى أن البيروني عندما أهدى موسوعته الفلكية القانون المسعودي إلى السلطان محمود، أرسل إليه هذا الأخير، إقراراً بفضلته، فيلاً محملاً بفضة خالصة، فرده البيروني شاكرًا، و متأبياً أن تستبدل المعرفة بالأموال من ذهب والفضة.

• الترجيح والاجتهاد:

يظهر الترجيح في كتابات البيروني من خلال وضعه لروايات متعددة للخبر الواحد، كما تظهر كلمة "قليل" وهي تدل على الاجتهاد، وقد اعترف البيروني أنه اجتهد في العديد من المواضيع وهو يصرح قائلاً: "وأنا حاك من أقاويلهم ما بلغني ومجتهد على قدر الطاقة في إصلاح الفاسد وإبطال الباطل، و تحقيق الحق¹¹؛" ولقد تميز باجتهاده على أسس واعتبارات متنوعة وفق الأمثلة التالية:

- 1 الترجيح على أساس التطابق مع الحسابات الرياضية الفلكية ويظهر ذلك في قوله: "وهذا هو الصحيح لشهادة الكتاب".
- 2 الترجيح على أساس العقلي على حد تعبيره، و يشبه أن يكون الحق من بين هذه الأقاويل هو هذا الأخير.
- 3 الترجيح على أساس وجود أخبار صحيحة و يقينية بناء على رأيه أن حضور الخبر الصحيح ينفي الخبر الكاذب .
- 4 الترجيح على أساس لغوي ، فقد عرض الروايات المختلفة عن ذي القرنين عند الأمم ، وقد مال إلى القول بأنه أبو كرب شمر برعرش باعتبار أن الأذواء كانوا من اليمن دون غيره من البقاع وهم اللذين لا تخلوا أساميهم من ذي كذي المنار وذي الأذعار وذي الشناتر وذي نواس ويظهر من هذا أن الأداة المستعملة في الترجيح هي الاجتهاد في مجال اللغة.

• المشاهدة والعيان:

لم يقتصر البيروني على العقل فقط بل أكد أيضاً على أهمية المشاهدة والعيان ويظهر ذلك من خلال كتابه تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة الذي أكد فيه وأثبت أن الخبر ليس كالعيان، لأن العيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان والنظر لقصورها على الوجود الذي لا يتعدى آتات الزمان وتناول الخبر إياها وما قبلها من ماضي الأزمنة وبعدها من مقبلها حتى يعم الخبر لذلك الموجود والمعدوم معاً ؛ ويظهر هذا الأسلوب أيضاً في وصفه الجغرافي للبلدان في كتابه تحديد آيات الأماكن، عندما قدم معرفة جغرافية على أساس تحليل علمي جيولوجي وكيميائي نبع من المشاهدة والمعرفة التي لا تكون المشاهدة والمعاينة أساس لها تدخل في إطار المعرفة الظنية. ويعلل البيروني ذلك بعدم اطمئنان القلب لبعض الأخبار دون المشاهدة. فبعض الأخبار والحقائق التي لا تشاهد عياناً تحرف.

• المقارنة:

شرح لنا البيروني في مقدمة كتاب **ما للهند** وبين لنا بدقة علمية فائقة أن الكتاب ليس كتاب حجاج وجدل حتى يستعمل فيه بإيراد حجج الخصوم ومناقضة الزائغ منهم عن الحق، وإنما هو كتاب حكاية فأورد فيه كلام الهند على وجهه وأضيف إليه ما لليونانيين من مثله لتعريف المقاربة بينهم، فإن فلاسفتهم وإن تحروا التحقيق فإنهم لم يخرجوا فيما اتصل بعوامهم عن رموز نخلتهم، ومواضع غموسهم، وأنه لم يذكر مع كلامهم كلام غيرهم إلا أن يكون للصوفية أو لأحد أصناف النصارى لتقارب الأمر بين جميعهم في الحلول والاتحاد والمقارنة الحققة تزيل الحجب والأصنام التي تحيلنا عن إدراك كنه الحقيقة.

• نبذ التقليد الأعمى والتكرار :

هذا وقد ذكره البيروني التقليد والتلقي العشوائي واجترار الأفكار وتسويقها بأخطائها وزلاتها. وحث مرارا على إعمال العقل و الاعتماد على الدراية والمشاهدة والتقصي ، الحقيقة التاريخية حسبه تحتاج إلى ناقد فطن، ومحلل عميق.

• الحياد والموضوعية:

إن من أساسيات الكتابة التاريخية هو الالتزام الموضوعية والحياد والبعد عن العصبية في التعامل مع الآراء والأحداث التاريخية ، حيث يرى البيروني أن الباحث الناجح هو الذي يتجنب التعصب لرأي ما وطلب الحقيقة لذا ا دون تدخل الأهواء والرغبات .
فالعصبية كما يراها البيروني تعمي الأعين البواصر وتصم الأذان السوامع وتدعو إلى ارتكاب ما لا تسامح باعتقاده العقول فالعصبية تقف كحاجز يحيل دون الوصول إلى الحقيقة الموضوعية ، ويرفض التحيز إلى رأي دون الآخر و يقول: "و لكن من راعى ما شرطته في أول هذا الكتاب من الوقوف على وسط طريقي التفريط والإفراط ولزوم الاعتدال للاحتياط¹²" ، وان انحاز فلا بد أن يكون انحيازه موضوعيا.

4. الخاتمة

نجد البيروني اهتم بقضية تحري الدقة والتوثيق ويتضح ذلك في عنايته البالغة في جمع بجمع الكتب والمادة العلمية الموثقة والمصادر الأصلية والصبر على مصاعب ذلك ليتمكن من الكتابة العلمية المعتبرة ويقول عندما تحدث عن ثقافة الهند من خلال كتابه "في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة" أو: "وقد أعيتني المداخل فيه(أي الكتاب) مع حرصي الذي تفردت به في أيامي ،وبذلي الممكن غير شحيح عليه في جمع كتبهم من المظان واستحضار من يهتدي لها من المكامن .

"ولعل ذلك ما جعل المستشرقون يعترفون بسعة معلوماته ودقة نظره وعمق بحثه وطريقته العلمية. كما اعترفت دوائر المعارف العلمية والدينية أن البيروني صنف هذا الكتاب بروح مبتكرة وبروح موضوعية علمية ،والكتاب موسوعي .

¹² - البيروني أبي الريحان ، الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق ادوارد سخاو، ليبزيح ،ألمانيا، ط1، 1923م، ص66.

وإن اعتمد البيروني كما وضح لنا في مقدمة كتابه "القانون المسعودي" على منهج خاص به أضافه إلى مناهج المجتهدين والباحثين قبله في كتابة الحقيقة التاريخية بفضل:

الشك المنهجي فقد كان يستخدم مفردات واضحة تدل على الشك والنقد مثل: "زعموا، زعمت" "يدعون" و "زعم بعضهم" وغيرها من الألفاظ التي تحمل دلالات الشك..

الحاسة النقدية ... تنوعت أساليب النقد عند البيروني فمثلا نجده يعتمد على الأسس العلمية، وذلك باستخدام الحسابات الرياضية للزمن المبنية على الفلك .

القدرة على الرؤية الشمولية....

الاحتكام المتكرر للتعقيل والعقلانية ... وربما هذا مقصد ابن خلدون من عبارته هاته في فضل علم التاريخ وأهميته فالتاريخ حسبه محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وثبت يفرضان إلى صاحبهما إلى الحق وينكبان به عن الزلات والمغالط لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا؛ ولم يعرضوها على أصولها؛ تاه المؤرخون في بيداء الوهم والغلط.

هذه الأسس والأبعاد المنهجية انعكست متجلية في تأريخات البيروني ومباحثه الحضارية، فتجاوزَ مجال التاريخ إلى التأريخ،

وكان أيضاً في طليعة الأنثروبولوجيين ودارسي الحضارات ومؤسسي علم الأديان المقارن. ف هو الذي لخص لنا منهجه ودقة عباراته وكيف أصيب بالتعب والاعياء طيلة الأيام والليالي بقدر ما كان في الكتاب من مداخل ومنعرجات وتفاصيل كنا عليه استحضار الحق فيها والتأكد من كل خبر وفكرة وتجاوز كل مكمن وخداع.

قائمة المصادر:

- البيروني أبي الريحان ، الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق ادوارد سخاو، ليبزيج ،ألمانيا، ط1، 1923م.
- البيروني أبي الريحان ، في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن الهند، ط 1957م.
- البيروني أبي الريحان ، القانون المسعودي، الجزء الأول، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن الهند صحح عن النسخة القديمة، ط1 1954
- أبو الريحان البيروني، تحديد آيات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن ، تحقيق د. ب. بولجاكوف. ، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة ط1 1962م

قائمة المراجع:

- بركات محمد مراد، البيروني فيلسوفا، الصدر لخدمات الطباعة سيسكو، ط، 1 ، 1988م.

- زهير الكتيبي، محمد بن أحمد البيروني، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 1992م.
- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج، 1 موفم للنشر. 1991م.
- عطيات أبو السعود الوعي التاريخي بين الماضي والمستقبل، عالم الفكر، العدد 4، المجلد 29، أبريل-يونيو 2001م.
- الفندي محمد جمال، أعلام العرب البيروني، دار الكتاب العربي، مصر، د.ط، 1968
- فيصل دراج: الرواية و تأويل التاريخ (نظرية الرواية و الرواية العربية)، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، بيروت - لبنان، 2004
- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج، 17 تحقيق أحمد فريد الرفاعي، مطبعة المأمون القاهرة.